نَاعِسة

تأليف



رسوم







تأليف

أماني العشماوي





إشـراف عـام: داليـا محمــد إبراهيــم

الترقيم الدولي: 2-5140-14-977-978
رقـم الإيـــداع: 16055 / 2014
الطبعة الأولـى: يناير 2015

تليفون: 33466434 – 02 33472864
فاكس: 02 33462576
خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

21 شارع أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة

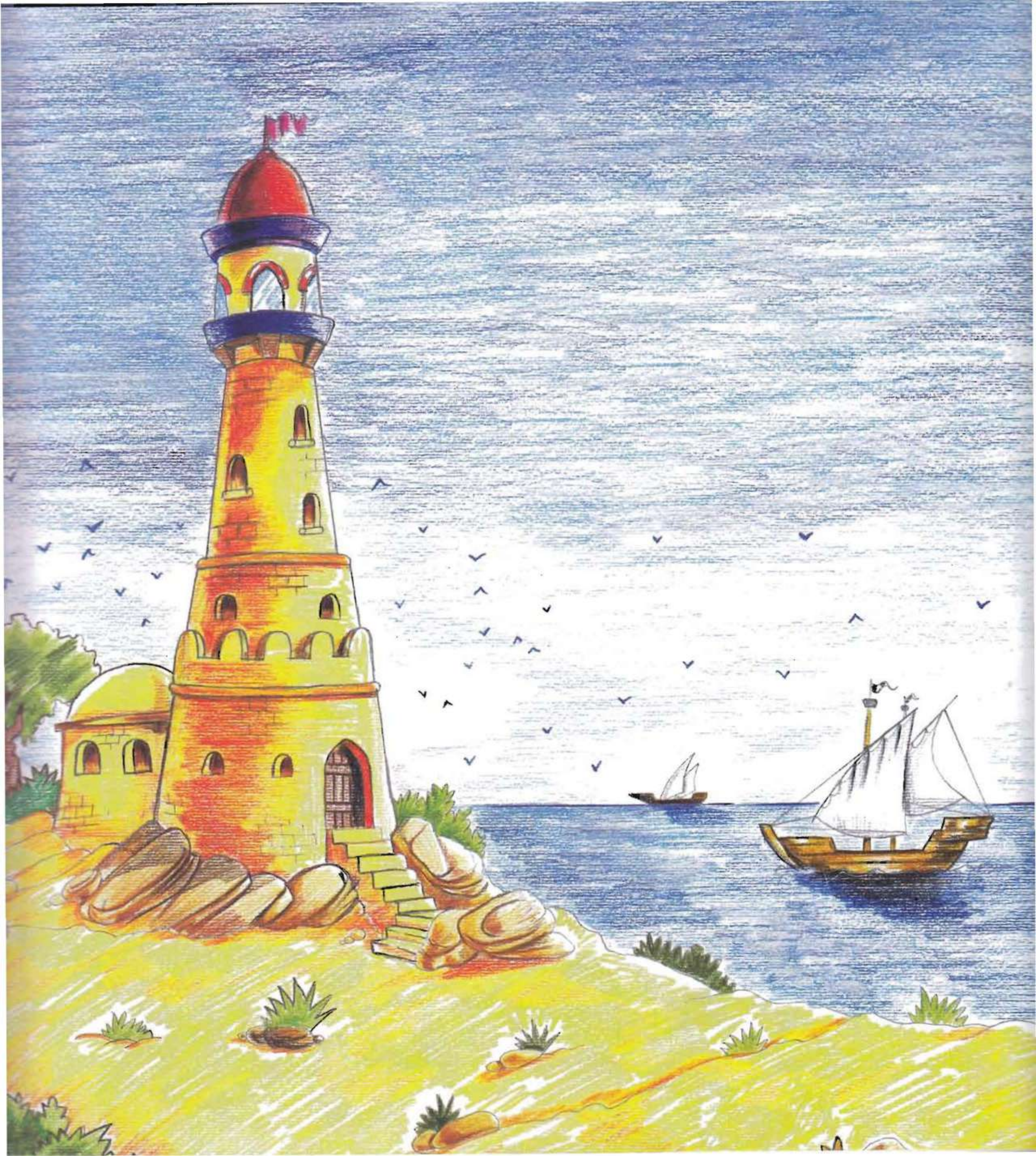
علـى سـاحلِ البحرِ الأبيـضِ، على صخرةٍ تبـرُزُ وحيدةً بالقربِ من الشـاطئِ، كانت تقـومُ منارةُ «أبـو هيـف»، يصلُها بالأرضِ لسـانٌ صخريٌّ منخفضٌ.. تغطيهِ الأمواجُ كلما ثـارَ البحرُ، وتُحيطُ به الصحراءُ من كلِّ ناحيةٍ.

كانَ عم إدريس هو حارسَ المنارةِ، أو الفنارِ كما يُسـميهِ الناسُ، وكان يعيشُ فيهِ مع ابنتِهِ ناعسـة وولديهِ فيصل وفِراس.

كان عم إدريس يعتني بالفنارِ عنايةً كبيرةً، فيَحملُ إليهِ الحطبَ بمساعدَةِ ولديهِ، ويحرِصُ على أن يبقَى مُضاءً طَوالَ الليلِ والنهارِ، لِيُؤَمِّنَ الحمايَةَ للسفنِ التي تمرُّ في تلكَ الأنحاءِ.

أمـا الولـدانِ، فإلى جانـبِ عنايتِهمـا بالفنـارِ مع أبيهِما، فكانا يعمـلانِ في صناعَـةِ المراكِـبِ فـي قريَـةِ الصَّيادينَ.

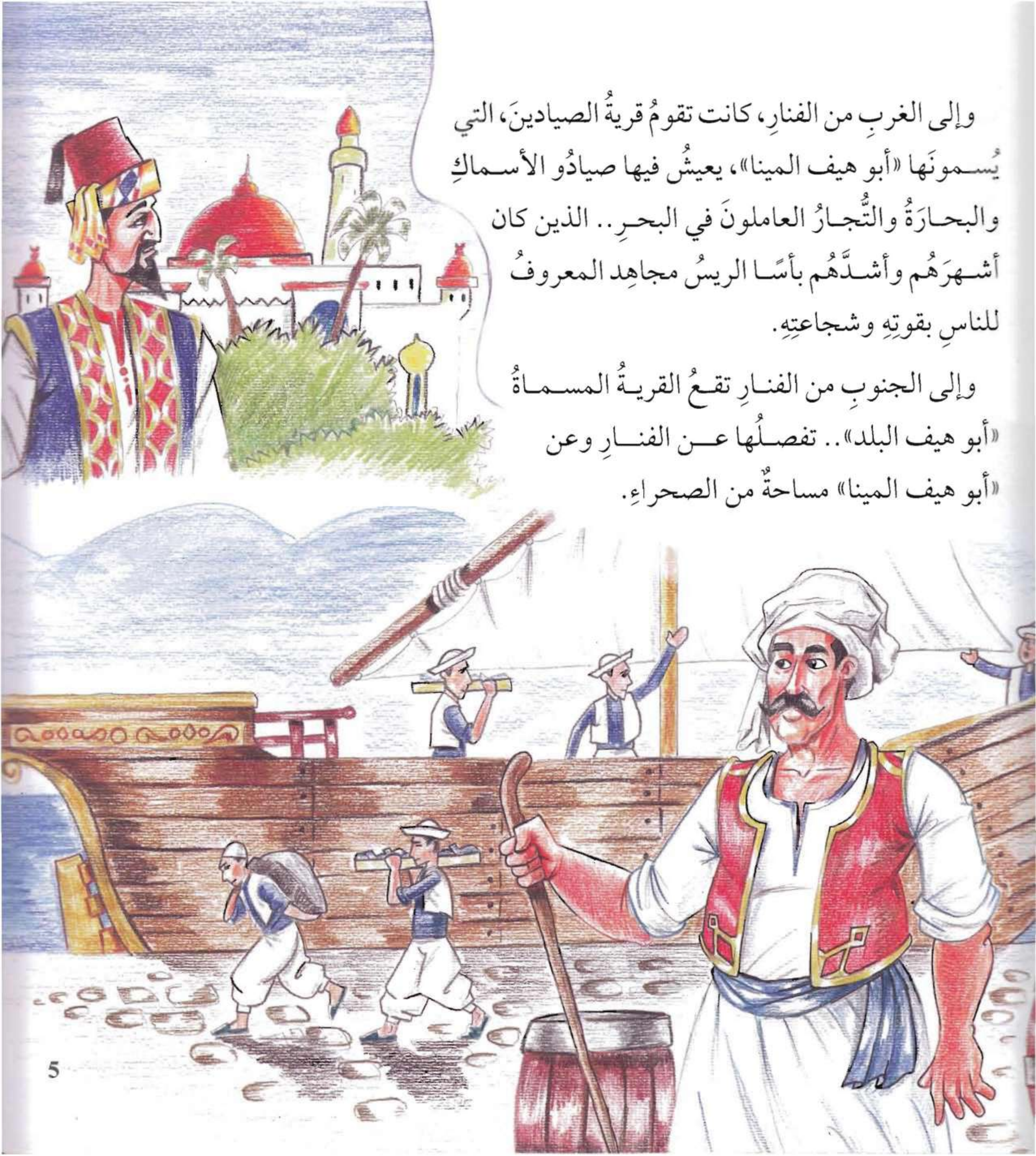






أما ناعسة، فكانت تعتنِي بوالدِها وأخويْها، وكانتْ لها ضَفيرَةٌ وحيدةٌ طويلةٌ جدًّا، وصوتٌ جميلٌ ساحرٌ يُعْجَبُ به كلُّ من يسمعُها تُغنِّي أثناءَ عملِها، أو وهي في طريقِها إلى القريةِ، أو حين تجلِسُ على درجاتِ الفنارِ تَخيطُ ثوبًا أو تُطرِّزُ مفرشًا.. وقد اشتهرتْ بين الناسِ بمهارَتِها في العنايَةِ بالمرضَى وخبرتِها في العلاجات المُسْتَخْلَصَةِ من النباتاتِ.

إلى الشرقِ من الفنارِ، يعيشُ الأميرُ مهرانُ في قصرٍ فاخرٍ يُطلُّ على البحرِ، له حديقَةٌ واسعَةٌ بها كلُّ ما هو غريبٌ ونادرٌ من الأشجارِ والأزهارِ.. فقد كان الأميرُ أغنى أهلِ المنطقَةِ كلِّها.



وإلى الغربِ من الفنارِ، كانت تقومُ قريةُ الصيادينَ، التي يُسـمونَها «أبو هيف المينا»، يعيشُ فيها صيادُو الأسـماكِ والبحـارَةُ والتُّجـارُ العاملونَ في البحـرِ.. الذين كان أشـهرَهُم وأشـدَّهُم بأسًـا الريسُ مجاهِد المعروفُ للناسِ بقوتِهِ وشجاعتِهِ.

وإلى الجنوبِ من الفنـارِ تقـعُ القريـةُ المسـمـاةُ «أبو هيف البلد».. تفصلُها عـن الفنـارِ وعن «أبو هيف المينا» مساحةٌ من الصحراءِ.

فِي أحدِ الأيامِ، ذهبتْ ناعسةُ إلى القريَةِ لتشتريَ بعضَ طلباتِ البيتِ، وفي طريقِ عودَتِها، قابلَها عوضٌ ابنُ عم فتحي النجارِ، فحملَ عنها ما اشترتْهُ وسارَ معها، فلما اقتربَا من الفنارِ، وجدَ عوضٌ كثيرًا من الأعشابِ البحريَّةِ مبعثرةً على الصخورِ، فقالَ لناعسةَ: «سوفَ أُعلِّمُكِ كيف تصنعينَ قبعةً من القشِّ تحميكِ من الشمسِ».

جمعَ عوض الأعشابَ، وجدلَ منها ضفيرَةً طويلَةً، ثم راحَ يطويها ويخيطُها بعودٍ رفيعٍ من الأعشابِ الجافَّةِ حتَّى صنعَ قبعةً، قدمَها لها، ووضعَ ما يحمِلُهُ على بابِ الفنارِ، ثم انصرفَ.

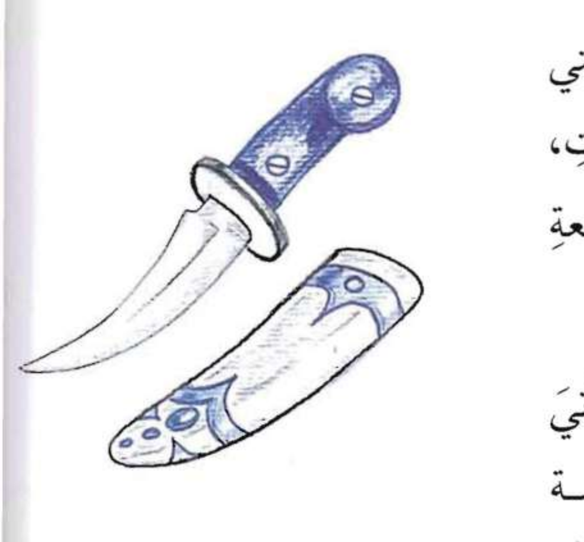


فـي صباحِ اليومِ التالي، التقَـى الأميرُ مهران فيصلَ وهـو فـي طريقِـهِ إلى الميناءِ، فقـدمَ له هديـةً خِنجرًا مُذَهَّبـا، وطلـبَ منـه أن يسـتأذنَ عـم إدريـسَ أن يأتـيَ لزيارتِهم مساءَ يومِ الجُمُعةِ، ليخطبَ منه ناعسةَ.

فـي صباحِ اليـومِ الثالثِ، ذهبت ناعسـة لتشـتريَ بعـضَ طلباتِ البيـتِ مـن سـوقِ القريَةِ، وفـي طريقِ عودتِها إلـى الفنـارِ، قابلَها عوض، فحملَ عنها ما اشـترتْهُ.. وأثناءَ سـيرِهما، توقفَ عوض وقالَ لناعسـةَ: «سوف أُريكِ كيفَ تَعْثُرينَ على فِطْرِ الكمأَةِ في الأرضِ الصحراويَّةِ».

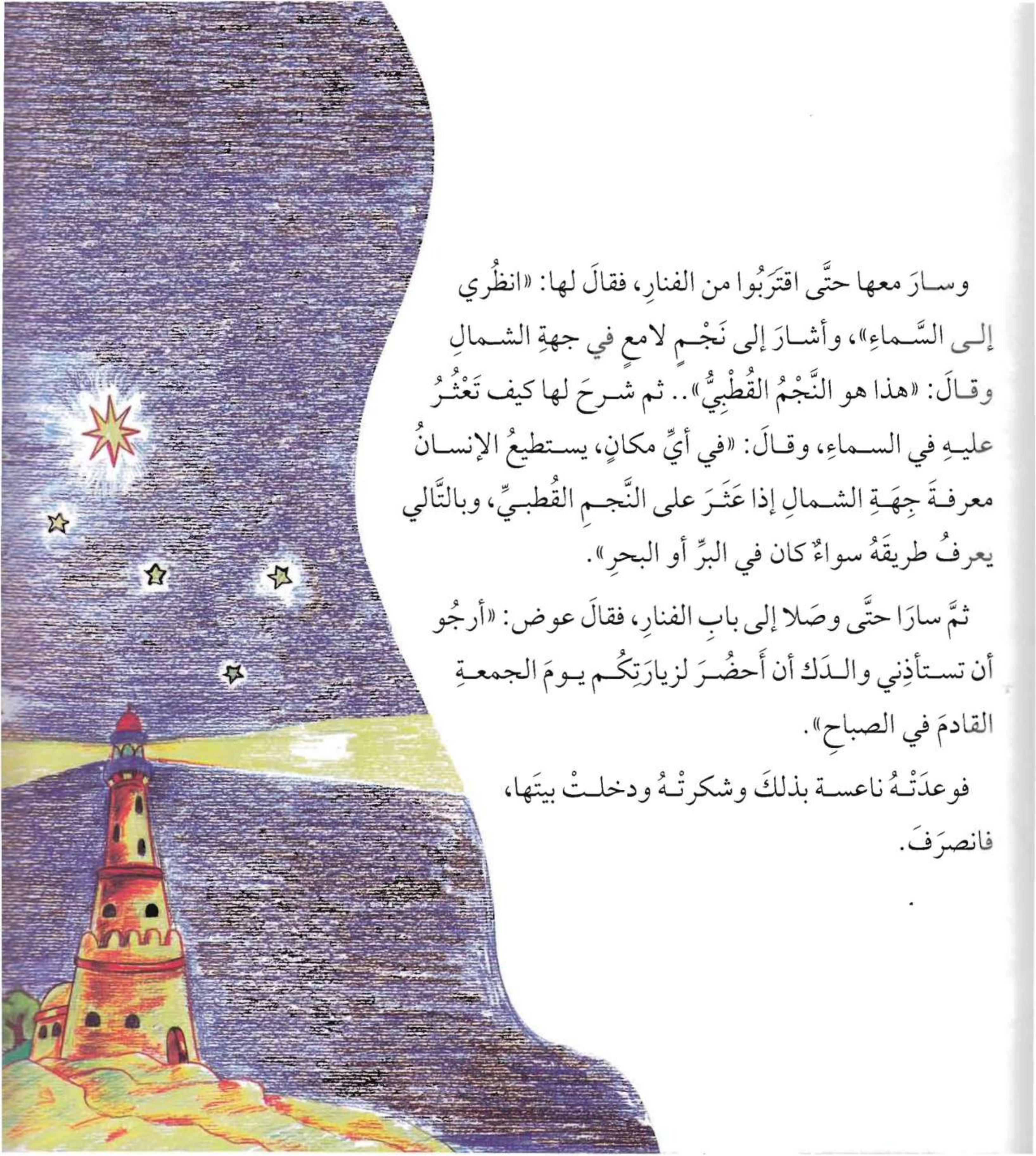
ثم مشَـى بخُطواتٍ بطيئةٍ وهو منحنٍ ينظُرُ إلى الأرضِ، وناعسةُ تفعَلُ مثلَهُ.. ثـم توقـفَ فجأةً وأشـارَ إلـى الأرضِ وقالَ: «انظُـري إلى هذِه الطبقَةِ من الرِّمالِ.. المُشَقَّقةِ»..

.. ثـم أزاحَ الرمـالَ قليلًا، واسـتخرجَ مـن الأرضِ ما يشـبِهُ البطاطسَ وقالَ: «هذا هو فِطْرُ الكمأَةِ، ينمو تحتَ طبقَةِ الرمالِ بعد نزولِ أمطارِ الشـتاءِ، فيبحثُ عنه الناسُ فـي الربيعِ التالـي ويأكلونَهُ، فهو من الطَّعـامِ الذي يمكنُ الحصولُ عليهِ في الصحراءِ».



فـي صباحِ اليـومِ الرابعِ، ذهـبَ الريسُ مجاهـد للمركبِ التي يعمـلُ بهـا فِراس، وقـدَّمَ له سـكينًا مصنوعًا من عظـامِ الحوتِ، وقـالَ له: «اسـتأذنْ لي عم إدريس أن آتِـيَ لزيارتِكُم يومَ الجمعةِ بعد الصلاةِ لأخطبَ ناعسة».

فـي صباحِ اليومِ الخامِسِ، طلبتْ أمُّ أحمد من ناعسـة أن تأتيَ إلـى القريَةِ لزيارَةِ ابنِها أحمد المصابِ بالحُمَّى، فذهبتْ ناعسـة لزيارتِـهِ، وظلـتْ معـهُ تمرضُـهُ وتعتَني بـه حتَّى غابتِ الشـمسُ وأظلمَـتِ الدُّنيا، فلما هَمَّتْ بالعودةِ إلى بيتِها في الفنارِ، وجدتْ عـوض فـي انتظارِهـا. فقـالَ لها: «سوفَ أصحبُكِ إلى الفنارِ حتَّى لا تسيرِي وحدَكِ في الظَّلامِ».



وسارَ معها حتَّى اقتَرَبُوا من الفنارِ، فقالَ لها: «انظُري إلى السَّماءِ»، وأشارَ إلى نَجْمٍ لامعٍ في جهةِ الشمالِ وقالَ: «هذا هو النَّجْمُ القُطْبِيُّ».. ثم شرحَ لها كيف تَعْثُرُ عليهِ في السماءِ، وقالَ: «في أيِّ مكانٍ، يستطيعُ الإنسانُ معرفةَ جِهَةِ الشمالِ إذا عَثَرَ على النَّجمِ القُطبيِّ، وبالتَّالي يعرفُ طريقَهُ سواءٌ كان في البرِّ أو البحرِ».

ثمَّ سارَا حتَّى وصَلا إلى بابِ الفنارِ، فقالَ عوض: «أرجُو أن تستأذِني والدَكِ أن أَحضُرَ لزيارَتِكُم يومَ الجمعةِ القادمَ في الصباحِ».

فوعدَتْهُ ناعسة بذلكَ وشكرتْهُ ودخلتْ بيتَها، فانصرَفَ.

في منتصفِ الليلِ، هبتْ عاصفةٌ عنيفةٌ، وضربتِ الأمواجُ الميناءَ والفنارَ طوالَ الليلِ، واستمرتِ العاصفَةُ طوالَ اليومِ التالي وليلِهِ.

في نهارِ اليومِ السادسِ؛ أي يوم الجمعةِ، بينَما العاصفَةُ مستمرةٌ، اجتمعتْ عائلةُ عم إدريس للإفطارِ في الفنارِ، فحكَى فيصل وفراس لأبيهِما عن لقائِهِما مع الأميرِ مهران والريسِ مجاهد، ثم قالَ فيصل: «أتمنَّى أن توافِقي يا ناعسة على الزواجِ من الأميرِ مهران، فهو رجلٌ غنيٌّ ويملِكُ كلَّ ما هو مُهِمٌّ في الحياةِ».

فقالَ فراس: «أرَى أن الريسَ مجاهد هو الأنسبُ، فالقوةُ هي أهمُّ شيءٍ في الحياةِ، وهو أقوَى رجلٍ في منطقَتِنا».

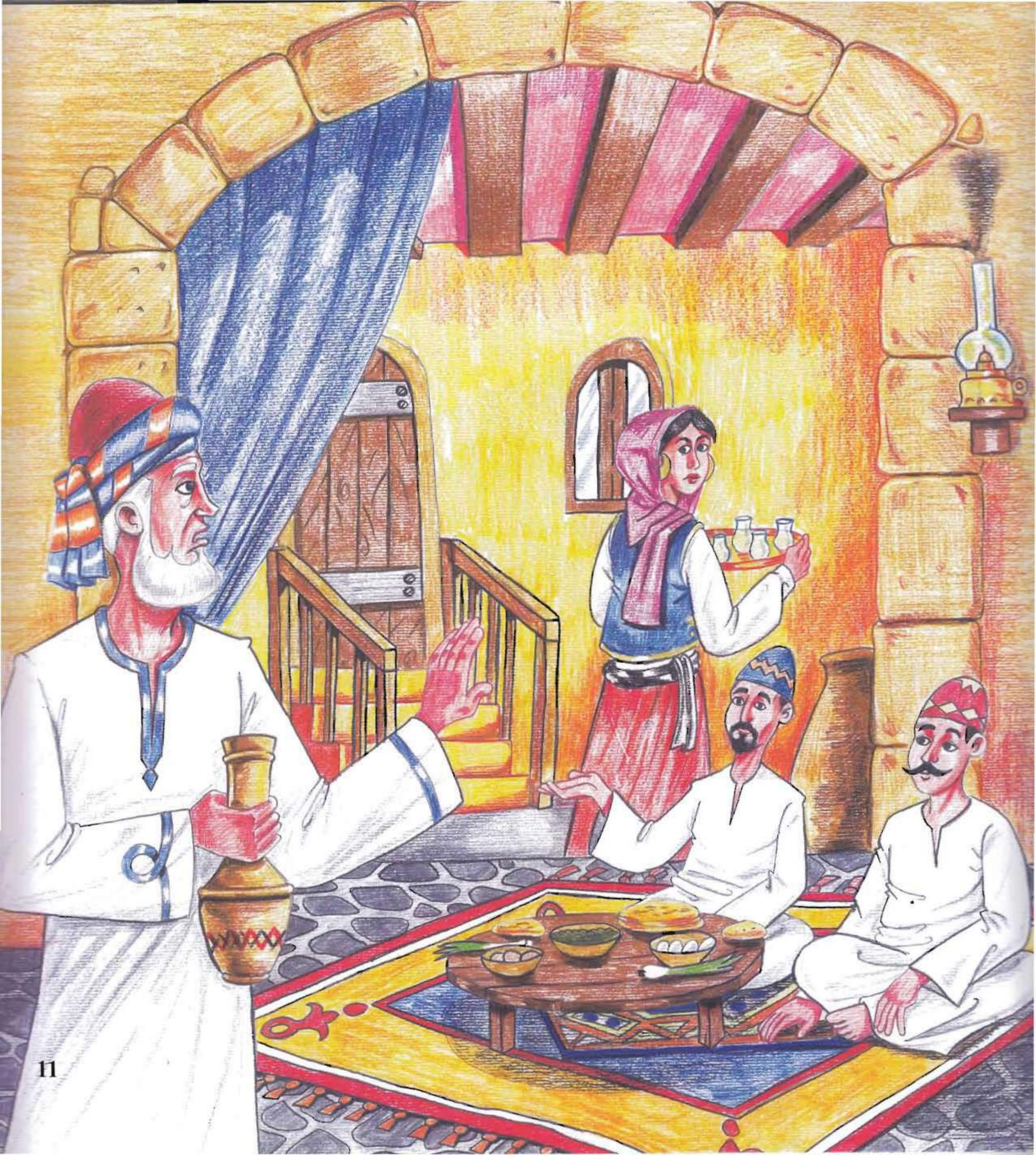
فحكتْ لهم ناعسة عن لقائِها مع عوض ابنِ عم فتحي النجار..

.. وقالتْ: «إنه في كلِّ مرةٍ يصحبُني إلى الفنارِ يُعلمُني شيئًا جديدًا».

فقالَ أخوها فيصل: «لكنَّهُ رجلٌ فقيرٌ».

وقالَ فراس: «لا تقاسُ قوتُهُ بقوةِ الريسِ مجاهد».

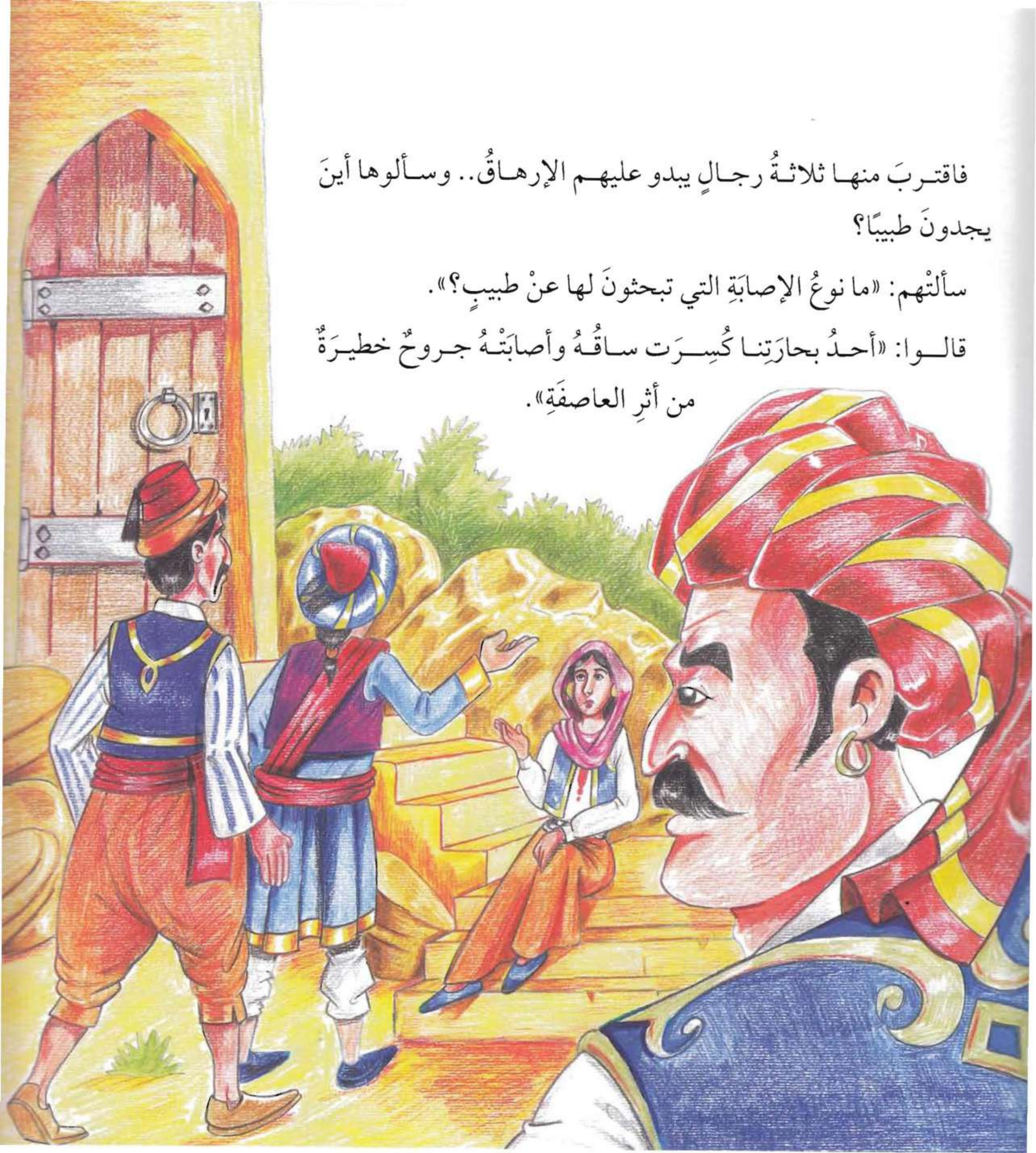
قالَ العَم إدريس: «لا دَاعِيَ للكلامِ في هذَا الموضوعِ الآنَ».. فسكتَ الأبناءُ.



اشتدتِ العاصفةُ مساءَ ذلك اليومِ، فأمضَى الأبُ وولداهُ الليلَ كلَّهُ ساهرينَ يرشدُونَ السفنَ للابتعادِ عن الصخورِ، ويراقبونَ شعلةَ الفنارِ حتى تَنْطَفِئَ.. فلما اقترَبَ الفَجْرُ، هدأت الرِّياحُ، وانْحَسَرَت الأَمْواجُ عن الفَنارِ.

في صباحِ اليومِ السابعِ، وكانَ يومَ الجمعةِ، كانت ناعسة تجلسُ في الشمسِ على درجِ الفنارِ..





فاقتربَ منها ثلاثةُ رجالٍ يبدو عليهم الإرهاقُ.. وسألوها أينَ يجدونَ طبيبًا؟

سألتْهم: «ما نوعُ الإصابَةِ التي تبحثونَ لها عنْ طبيبٍ؟».

قالوا: «أحدُ بحارَتِنا كُسِرَت ساقُهُ وأصابَتْهُ جروحٌ خطيرَةٌ من أثرِ العاصفَةِ».

قالتْ ناعسة: «انتظروني لحظةً واحدةً».

ودخلتْ ثُمَّ خرجَتْ تضعُ شالَها على كتفيْها وتحملُ سلةً من الخوصِ بها أدواتُ العلاجِ وبعضُ أعوادِ النباتِ، وذهبتْ معَهم.. وفي الطريقِ، استأذنَتهُم أن تُحْضِرَ بعضَ أوراقِ الصَّبارِ.. ثم تابعتْ طريقَها معهُم. في السفينةِ، وجدتْ ناعسة رَجُلَينِ، وليس رجلًا واحدًا، مُمدَّديْنِ على الأرضِ، أحدُهما يعانِي من جروحٍ عميقَةٍ في ذراعِهِ ورقبتِهِ، والآخرَ يعاني من كسورٍ وقروحٍ في ساقَيْهِ.

طلبتْ ناعسةُ ماءً ساخنًا.. وأخذت تُنظفُ الجروحَ، وتُجبِّرُ الكُسورَ وتَضعُ قطراتٍ من عُصارَةِ الصَّبَّارِ على الجروحِ، وشرائحَ من نباتِ الصبارِ على القروحِ. ثم سقتِ المريضَيْنِ مشروبًا ساخنًا يُهدئُ من آلامِهِما ويساعدُهُما على النومِ.

أثناءَ عملِها، شعرتْ ناعسة أن السفينةَ تهتزُّ.. فتابعتْ عملَها في صمتٍ، حتَّى انتهتْ، وصعدتْ على السَّطحِ، فاكتشفتْ أن السفينةَ قد تحركتْ مبتعدَةً عن الميناءِ.

عرفتْ ناعسة أنها وقعتْ في يدِ عصابةٍ لا تلتزمُ بالقانونِ ولا بالأمانةِ والشهامةِ.

فسكتَتْ تمامًا، ولم تُبْدِ لهم خوفَها أو شكَّها في نواياهُم. وإنَّما تابعت العنايَةَ بالمريضَيْنِ كأنها لا تشغلُ بالَها إلا بحالتِهم الصحيَّةِ.



***



في ذلِكَ الوقتِ، استيقظَ أبو ناعسة وأخواها، فلم يجِدُوها في الفنارِ ولا حولَهُ، ولا في القريَةِ.. وراحوا يسألونَ عنها كلَّ من يقابلُهُم.. حتى أخبرَهم أحدُ العامِلين في أرضِ الأميرِ أنه رآها تسيرُ مع ثلاثةِ رجالٍ أغرابٍ نحوَ الميناءِ.

استنتجَ أَخَوا ناعسة أن عصابةً من القراصنَةِ قد اختطفُوها بسفينتِهِم التي كانت ترسُو قريبًا من الميناءِ في صباحِ العاصفَةِ.. فعادا إلى الفنارِ وأبلغَا والدَهُما الخبرَ، واستعدَّا للخروجِ إلى البحرِ بحثًا عن أختِهما.



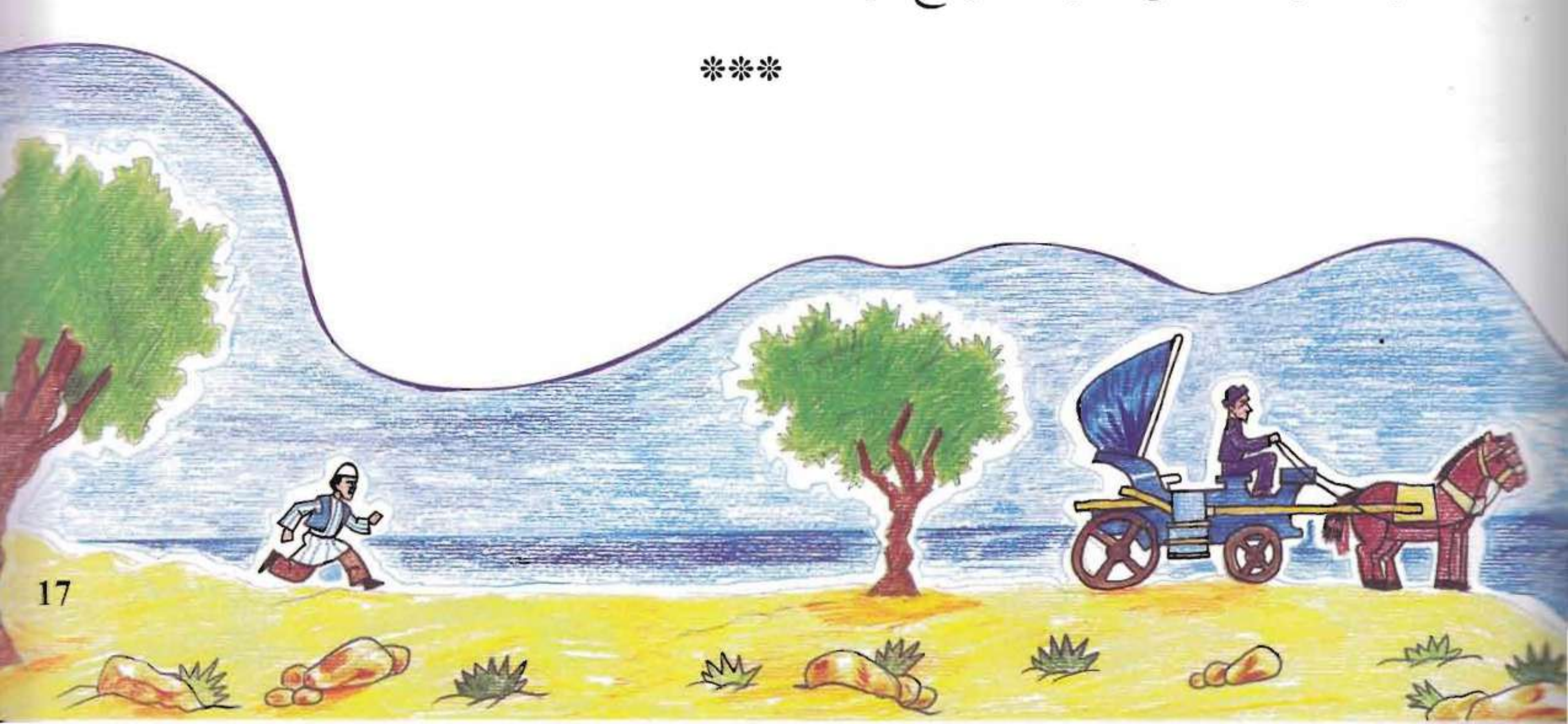
حضرَ الأميرُ مهران إلى الفنارِ، عندَمَا سمعَ خبرَ اختطافِ ناعسة، عرضَ على والدِها وأخويْها أن يساعدَهُما في البحثِ عنها، ووضعَ إحدَى سفنِهِ تحتَ تصرفِهِم، ليسافرُوا بها.

وجـاءَ الريـسُ مجاهد عارضًا خدماتِهِ على أهلِ ناعسـة ، فاقترحَ أن يقودَ السـفينَةَ بنفسِـهِ، ويصلَ بهـم إلـى أيِّ مكانٍ قد يجدونَ فيه ناعسـة، ووعدَهم أن يخوضَ أيَّ صعـابٍ تواجهُهُم حتى يعودوا بناعسةَ سالمةً.

وحضرَ عوضُ من القريةِ، وعرضَ على الأخوَيْنِ أن يذهبَ معهُما، لعلَّه يكونُ ذَا فائدةٍ لهم.

وهكـذا.. قـادَ الريسُ مجاهد السـفينةَ، وخرجَ بها مـن الميناءِ إلى البحرِ الواسـعِ، وبدأت الرحلَةُ والجوُّ صحوٌ والشمسُ مشرقةٌ والرياحُ مواتيةٌ.

***

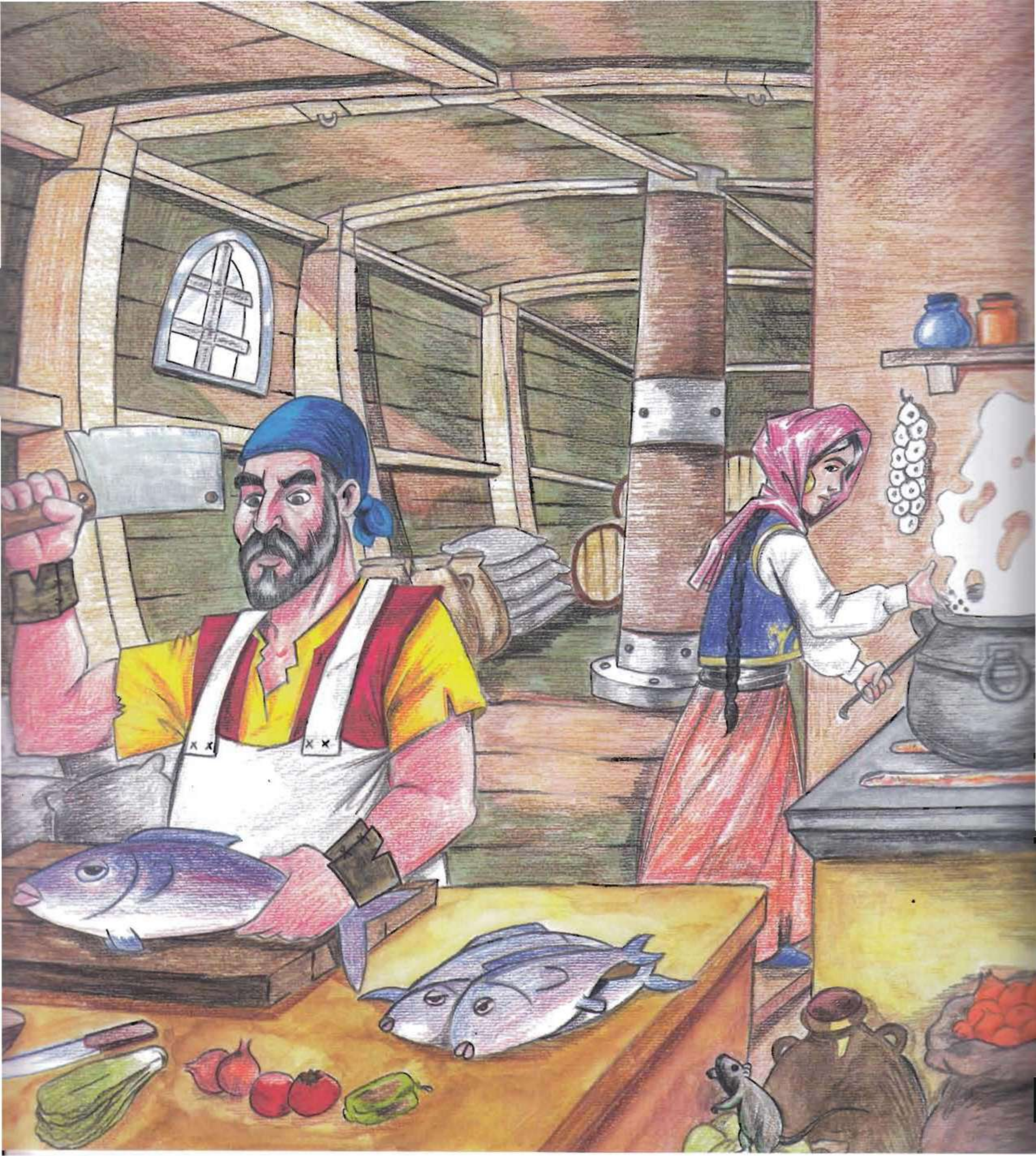




فــي اليـومِ التَّالـي، تحسَّـنـتْ حـالُ المريضَيْـنِ، وصـارَ في استطاعَتِهمـا الجلـوسُ والكـلامُ وتنـاولُ الطعـامِ.. فذهبـتْ ناعسـةُ لربانِ السـفينةِ وطلبتْ منه أن يسـمحَ لهـا أن تُسـاعدَ في أعمالِ المطبخِ.. فسـمحَ لها الرُّبانُ بذلكَ.

صـارتْ ناعســةُ تَعتنِــي بالمريضَيْــنِ، ثم تنـزلُ إلى المطبـخِ في أسفـلِ السفينــةِ، تساعـدُ في إعـدادِ المـرقِ وطهـوِ الطعامِ، فتظلُّ تعملُ في صمتٍ ودونَ تأفـفٍ أو اعتـراضٍ.. حتـى اعتـادَ الطباخُ على وجودِهـا، وأصبـحَ يكلفُهـا بمزيــدٍ مـن الأعمـالِ.

ذاتَ يومٍ، رأتْ ناعسـةُ أرضًا تظهرُ في الأفقِ، عن يسـارِ السـفينَةِ، وتأملتِ الشمسَ، فعرفتْ أنَّهم يتجهـونَ غربًـا، إذنْ، تلكَ الأرضُ جهـةَ الجنـوبِ، فانتظـرتْ حتى وقـتِ الظُّهرِ، فأخرجتْ قرونَ نباتِ السَّنا المكِّي (يقالُ عنهُ في مصرَ سَلامِكَّا) من سلَّتِها، واستخْرجتْ بذورَهُ من القرونِ وحفظتْهُ فـي جَيْبِهـا.. فلمـا حانَ وقـتُ إعدادِ طعامِ العَشـاءِ، أضافتْ بذورَ السـنا مَكي إلى الطعـامِ في غفلةٍ من الطباخِ، وتابعتْ عملَها بهدوءٍ.. ولم تأكُلْ ناعسـة في ذلكَ المسـاءِ شيئًا من طعامِها، وإنَّما ألقتْهُ إلى البحرِ.

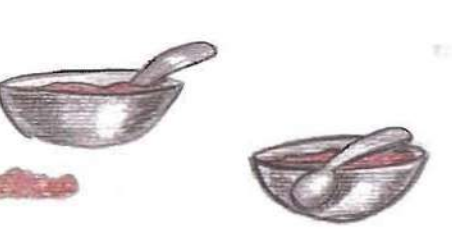


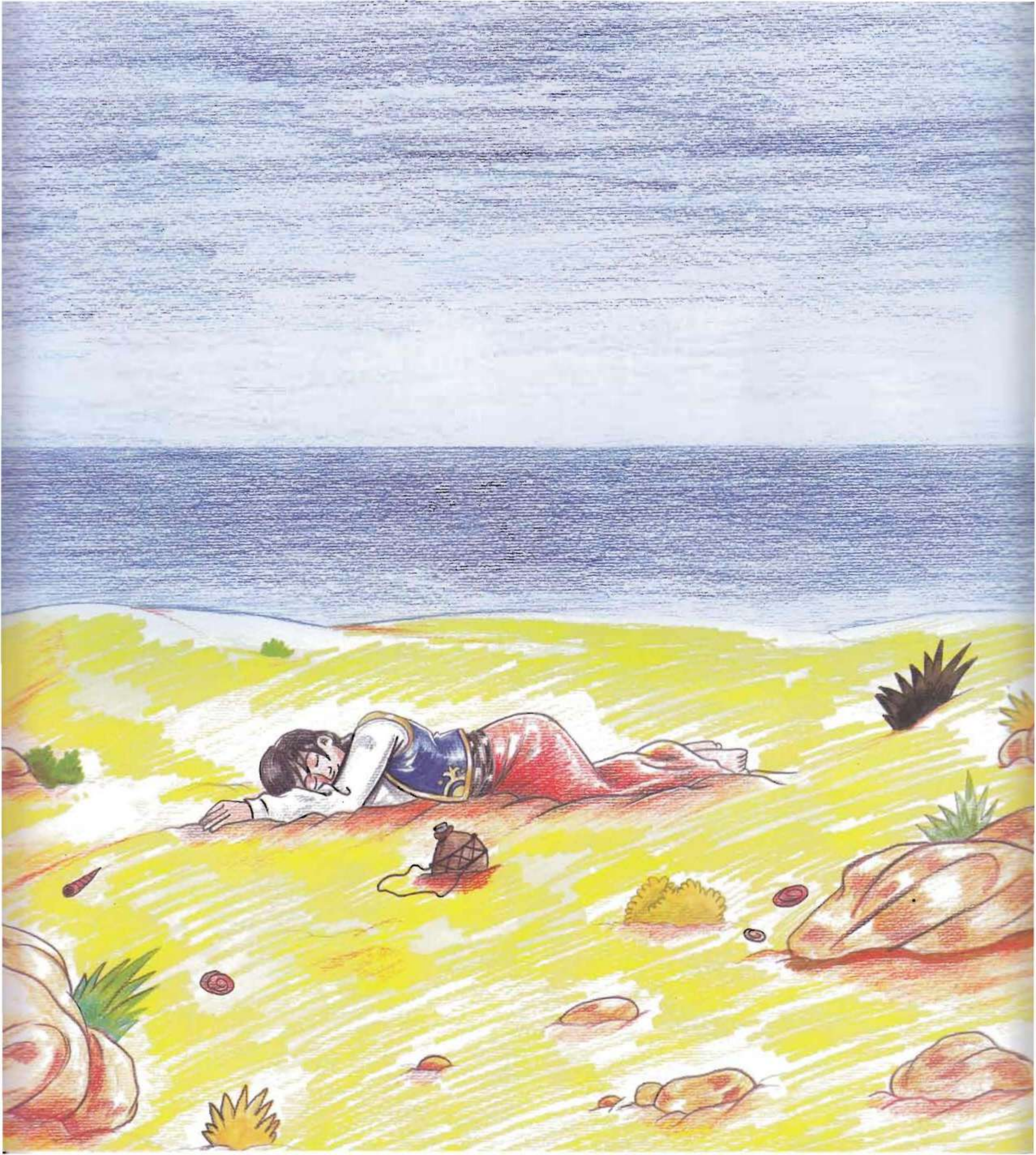
فلمَّـا هـدأتِ الحركةُ على السـفينةِ، ونامَ البحارَةُ، بدأتْ تظهرُ عليهِم آثارُ الإسـهالِ العنيفِ الذي سـبَّبَهُ لهم بذورُ السَّـنامَكي، فانتظرتْ ناعسة بجوارِ مقودِ السفينةِ، فلما ثبتَهُ البحارُ المناوبُ ليذهبَ إلـى المرحاضِ، صعدتْ ناعسـة وحلَّـتْ رِباطَ المِقـوَدِ، وأدارتِ اتجاهَ السـفينَةِ نحـوَ الأرضِ، ثم ثَبتتهُ مـرةً أُخرى.. وابتعـدتْ بخفَّةٍ دونَ أن يرَاها أحدٌ.

فلمَّـا لاحظـتْ أنَّ السـفينَةَ اقتربـتْ مـن الأرضِ، وتأكـدتْ أن الجميعَ مشـغولونَ عنها لإصابَتِهِم بالإسـهالِ.. قفزتْ مِنْ سـطحِ السـفينَةِ، وهي تَحملُ قِربةَ ماءٍ حولَ رقبَتِها، وسبَحَتْ إلى الشَّاطئِ قبلَ أن ينتبِهَ إليها أحدٌ.

سـبحـتْ ناعسـةُ حتَّـى وصلـتْ إلـى الشاطـئِ، ونامـتْ، من شـدةِ الإرهاقِ، علَى الرمالِ بينَ الصخورِ.. حتى أيقظَتْها أشعـةُ الشمسِ الحاميةُ..









مـرَّ اليـومُ الأولُ مـن رحلةِ الأخوَيْـنِ، فيصل وفراس بسـلامٍ، وكذلكَ اليومُ الثانـي والثالثُ.. ثُمَّ هبتْ ريحٌ عاتيةٌ في اليومِ الرابعِ، وثارَ البحرُ وعَلا الموجُ وراحتِ السفينةُ تتأرجحُ وصواريها تهتزُّ.. وأسـرعَ البحارةُ يطوونَ الأشـرعَةَ، ووقـفَ الريسُ مجاهد أمامَ مقودِ السـفينةِ يحـاولُ السـيطرةَ عليهـا حتَّـى لا تجرفَهـا الريـاحُ أو تقلبَهـا الأمواجُ.. ووقـفَ بجوارِهِ فراسٌ أخو ناعسـةَ يراقبُهُ.. وكلما رآهُ يفقدُ السـيطرةَ عليهـا يقولُ له: «تقولُ إنك قويٌّ ويمكنُـكَ التَّغَلُّـبُ على أيِّ شـيءٍ في الدنيـا.. فلماذا تعجزُ عـن التَّغَلُّبِ على العاصفةِ»؟

فيـردُّ الريسُ مجاهد: «إلا العواصـفَ يا فـراس، لا يوجـدُ إنسـانٌ أقوَى من العواصِفِ».

جنحتِ السفينةُ نحوَ الصخورِ، وارتطمتْ بها فانشقَّ جانِبُهـا، واندفعـتِ الميـاهُ داخلَهـا.. وراحتْ تَغْرَقُ.

بسرعةٍ.. صعدَ عوض إلى ظهرِ السفينةِ، وقالَ للريسِ مجاهد: «اطلبْ من بحارَتِك أن يحملُوا البراميلَ من قلبِ السفينَةِ إلى السطحِ ويُفرِغُوا ما بها ثم يغلقوها ثانيةً».

نفَّذ البحارةُ أمرَ ربانِهم، وفي الحالِ أخذَ عوض يعلمُهم كيف يَرْبِطُ كلُّ واحدٍ منهُم نفسَهُ بالحبالِ حولَ البرميلِ، ثم ساعدَ فيصل وفراس، وعرضَ على الريسِ مجاهد أن يساعدَهُ..

.. لكنَّ الريسَ مجاهد قالَ له: «أنا رُبَّانُ السفينةِ، فلن أغادِرَها إلا بعد أن تغادروها كلُّكُم».

وهكَذا، قفزَ الجميعُ من السفينةِ قبلَ أن تغرَقَ بلحظاتٍ، وقفزَ بعدَهم الريسُ مجاهد.. وراحوا كلُّهم يصارِعُون الأمواجَ، لكنَّ البراميلَ جعلتْهُم يطفُونَ، فأنقذَتْهُم من الغرقِ.

أثناءَ ذلك، كان فيصلُ يقولُ ويرددُّ لنفسِهِ: «ماذا تنفعُنا أموالُ الدنيا كلُّها في مثلِ ذلك الوقتِ».

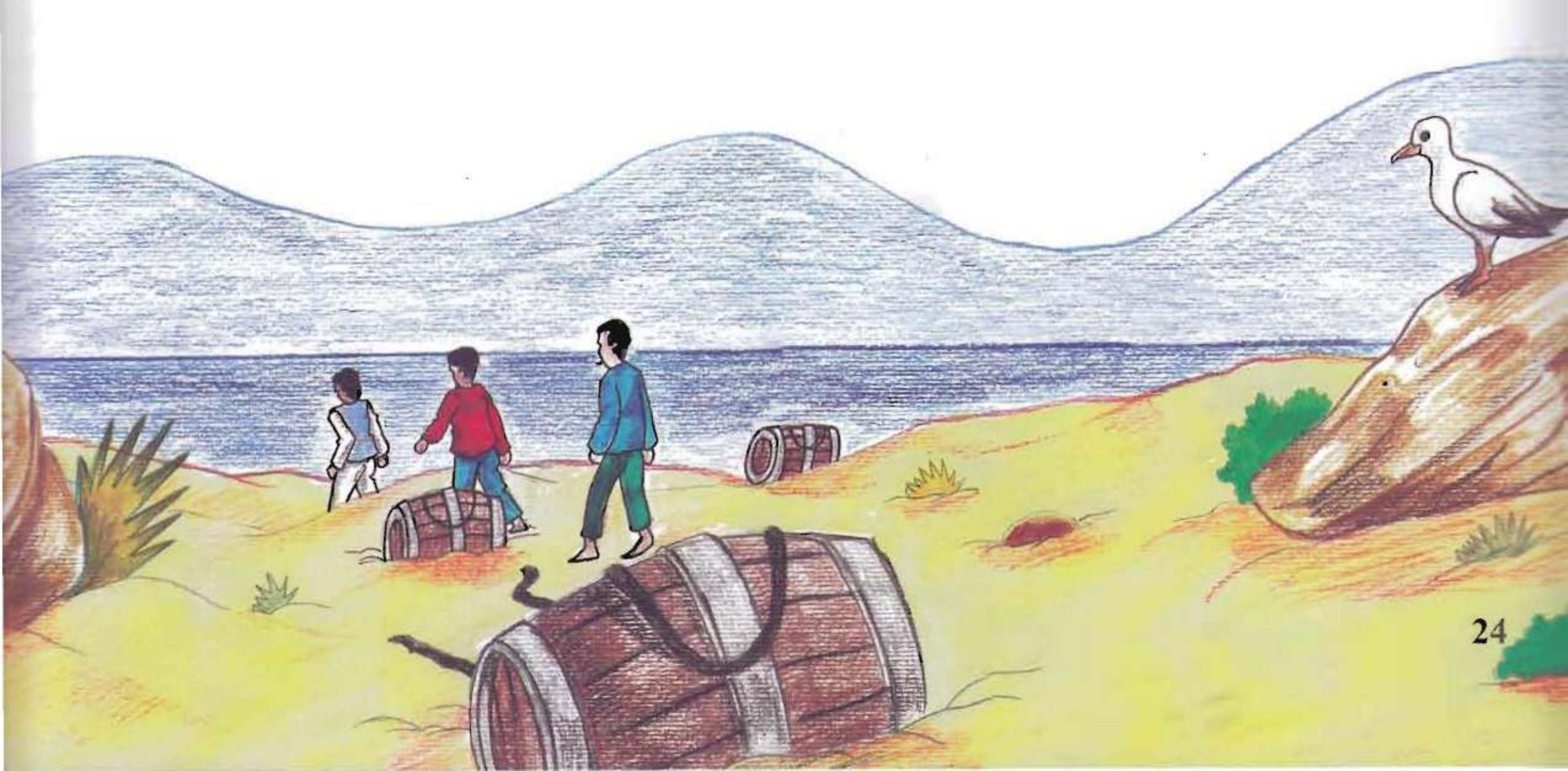


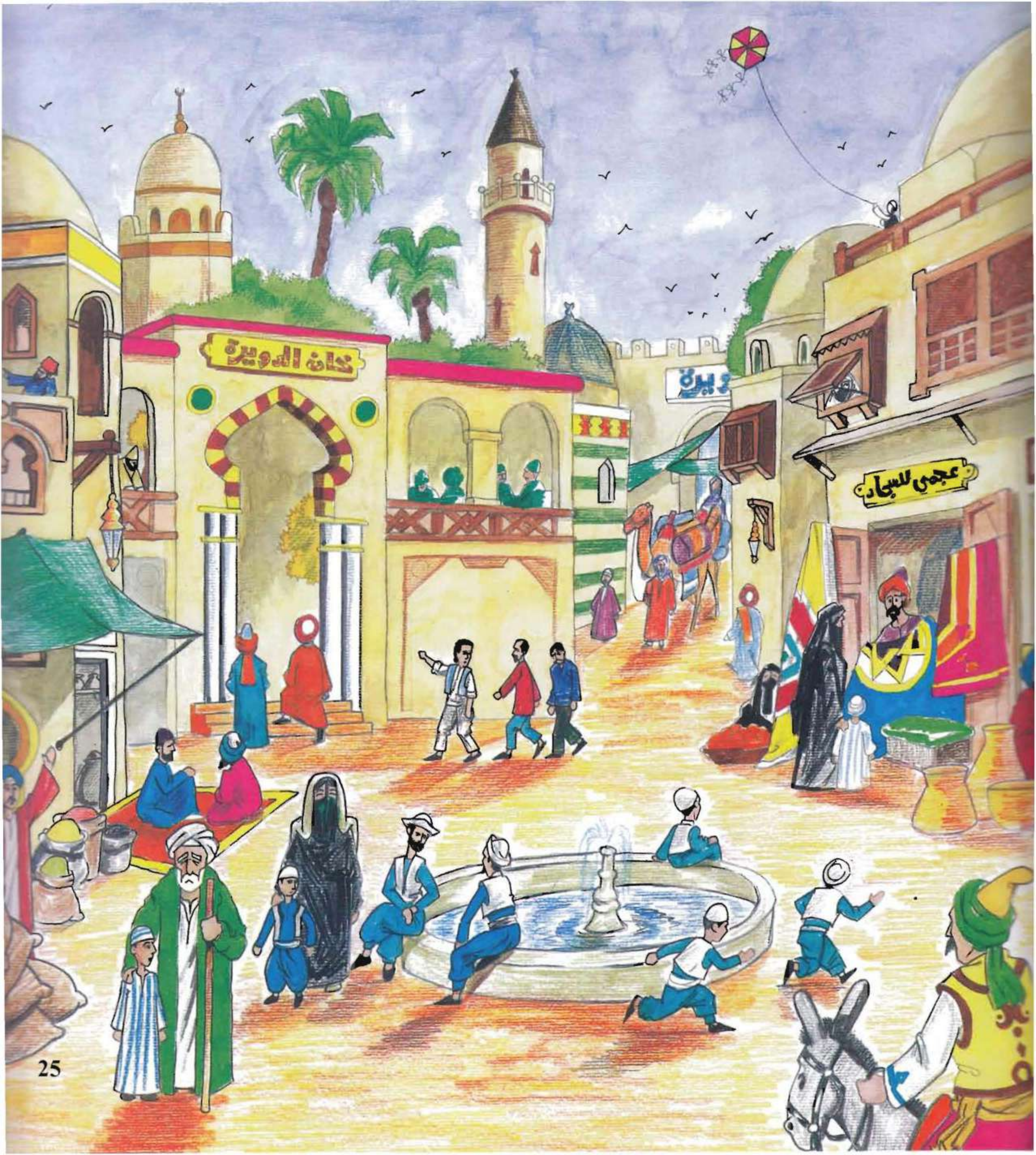
استمرتِ العاصفةُ حتى فجرِ اليومِ التَّالي، ثم هدأتْ بالتدريجِ، وأخيرًا.. انقشعتِ الغيومُ وصفَا الجوُّ مع شروقِ الشمسِ. وجرفتِ الأمواجُ عوض وفيصل وفراس إلى البرِّ قريبًا من ميناءِ الدويرةِ.

نامَ الرفاقُ الثلاثةُ على الشاطئِ حتَّى ارتاحوا، ثم سارُوا بمحاذاةِ الساحلِ حتى وصَلُوا إلى ميناءِ الدويرةِ..

وهناكَ، نزلوا في أحدِ منازلِ المسافرينَ.

***




خان الدويرة
عجمي للسجاد



جلستْ ناعسة وتأملتِ المكانَ من حولِها. فوجدتِ الصخورَ تغطِّي الشَّاطئَ، والأعشابَ البحريةَ منتشرةً عليها، فجمعتْ أعشابَ البحرِ والقشَّ المبلَّلَ، ونشرتْهُ قليلًا في الشمسِ، ثم جدلَتْهُ وصنعتْ منهُ قبعَةً لها، وقطعتَيْنِ مستطيلتَيْنِ لِتَلُفَّهُما حولَ قدمَيْها لتتمكنَ من السيرِ على أرضِ الصحراءِ المحرقَةِ، ثُم شربتْ ممَّا كانَ معَها من ماءٍ، وانتظرتْ حتى خفَّت حرارةُ الشمسِ، فقامتْ تسيرُ بحذاءِ الشاطئِ. عكسَ اتجاهِ مغربِ الشمسِ.

بعد قليلٍ، وصلتْ ناعسة إلى أرضٍ تنمُو بها بعضُ الأعشابِ والحشائشِ المتباعدَةِ، فتذكرتْ ما تعلمَتْهُ من عوض، وقالتْ لنفسِها: «إذنْ، هذِه الأرضُ سقطتْ عليها أمطارٌ في الشِّتاءِ؛ لذلك أنبتتْ هذه الحشائشَ في الربيعِ».

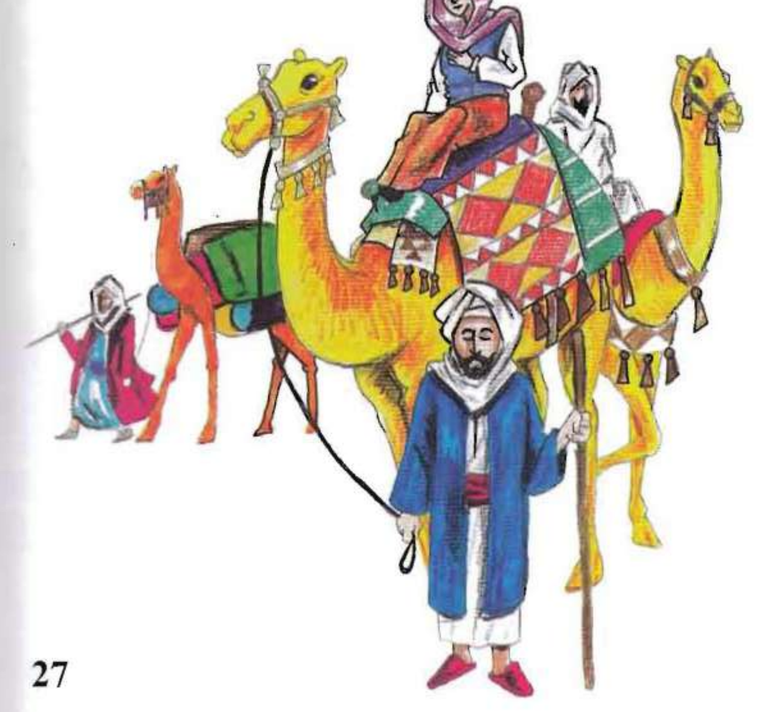
وانحنتْ وراحتْ تتفحصُ الأرضَ، وتحفرُ هنا وهناك، وتجمعُ فطرَ الكمأَةِ. ثم انتحتْ جانبًا بجوارِ صخرةٍ تُظلِّلُها من الشمسِ، وجلستْ تأكلُ ما جمعَتْهُ.. ثم تابعتْ سيرَها بحذاءِ البحرِ.

سارتْ ناعسة وسارتْ.. حتَّى أظْلمتِ الدُّنيا، وظهرتِ النجومُ في السَّماءِ، فتذكرتْ ما تعلمتْهُ من عوض، وراحتْ تتأملُ السماءَ وتتفحصُ النجومَ حتَّى عثرتْ على النَّجمِ القطبِيِّ الذِي يشيرُ إلى الشمالِ، فوقفتْ والنجمُ عن يُسْراها، وقالتْ: «إذا سرتُ في هذَا الاتجاهِ أكونُ سائرةً في الاتجاهِ الصحيحِ نحوَ بلدِي».

استراحتْ ناعسة قليلًا، وأكلتْ ما تبقَّى معَها من الكمأَةِ، وشرِبتْ قليلًا من الماءِ، ثم قامتْ تتابعُ طريقَهَا باتجاهِ الشرقِ. حتى فجرِ اليومِ التالي، فرقدتْ على الأرضِ.. ونامتْ.

فلمَّا اشتدتْ حرارةُ الشمسِ، استيقظتْ، فشرِبتْ قليلًا من الماءِ وتابعتْ سيرَها متجهةً نحوَ مطلعِ الشمسِ.. وجمعتِ الكمأَةَ كما فعلتْ في اليومِ السابقِ، وجلستْ في ظلِّ صخرةٍ لتأكلَ ما جمعتْهُ.

انتهتْ ناعسة من طعامِها، وظلتْ جالِسةً تستريحُ، ثم راحتْ تُغَنِّي بصوتِها الجميلِ لتُهَوِّنَ من شعورِها بالوحدَةِ.. وبينَما هي تغنِّي، سمعتْ أصواتًا من بعيدٍ، ثم رأتْ خيالاتِ مسافرينَ على الإبلِ، اقتربُوا منها بالتدريجِ... وسألوها ماذا تفعلُ في وسطِ الصحراءِ. وقالوا إنهم سمعُوا صوتَ غنائِها فاتَّجهوا نحوَه ليروْا من يُغَنِّي في هذا المكانِ القفرِ.. فحكتْ لهم حكايتَها.



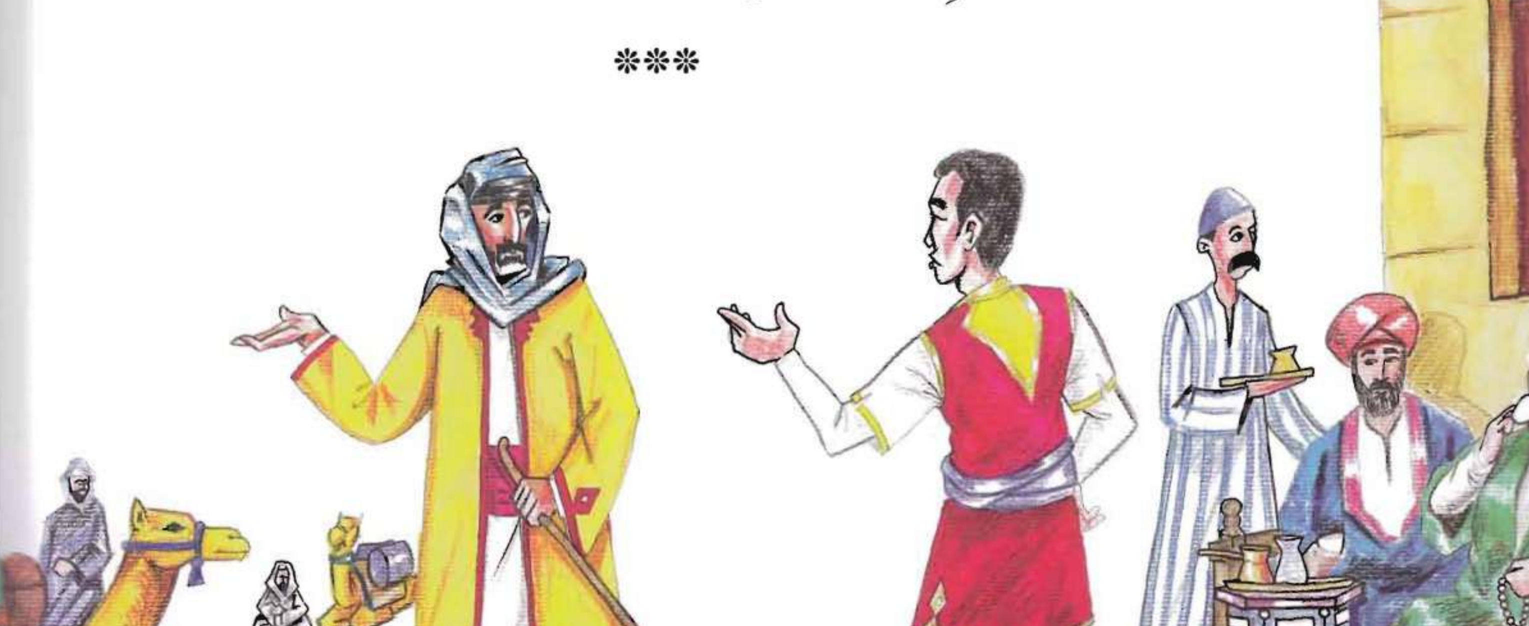
ركبتْ ناعسة مع القافلةِ المسافرةِ، ووصلتْ بعد أربعةِ أيامٍ إلى واحةِ الريانِ.

***

بعدَ يومينِ من إقامةِ فيصل وفراس وعوض في ميناءِ الدويرةِ، وصلتْ قافلةٌ قادمةٌ من الشرقِ، ونزلتْ في نُزُلِ المسافرين ليرتاحَ أفرادُها، ويبيعوا بضائِعَهم ويشتروا ما يحتاجونَهُ قبلَ أن يُتَابعُوا سفرَهم. فتعرفَ عوض على قائِد القافلَةِ وعرفَ منه أنهم سيستأنفونَ رحلتَهُم غربًا بعد خمسةِ أيامٍ.

مرتِ الأيامُ الخمسةُ والرفاقُ الثلاثةُ يتجوَّلُونَ في البلدةِ ويتعرَّفُونَ على أهلِها، حتَّى جاءَ وقتُ الرحيلِ، فسافروا مع القافلةِ المتجهةِ غربًا.

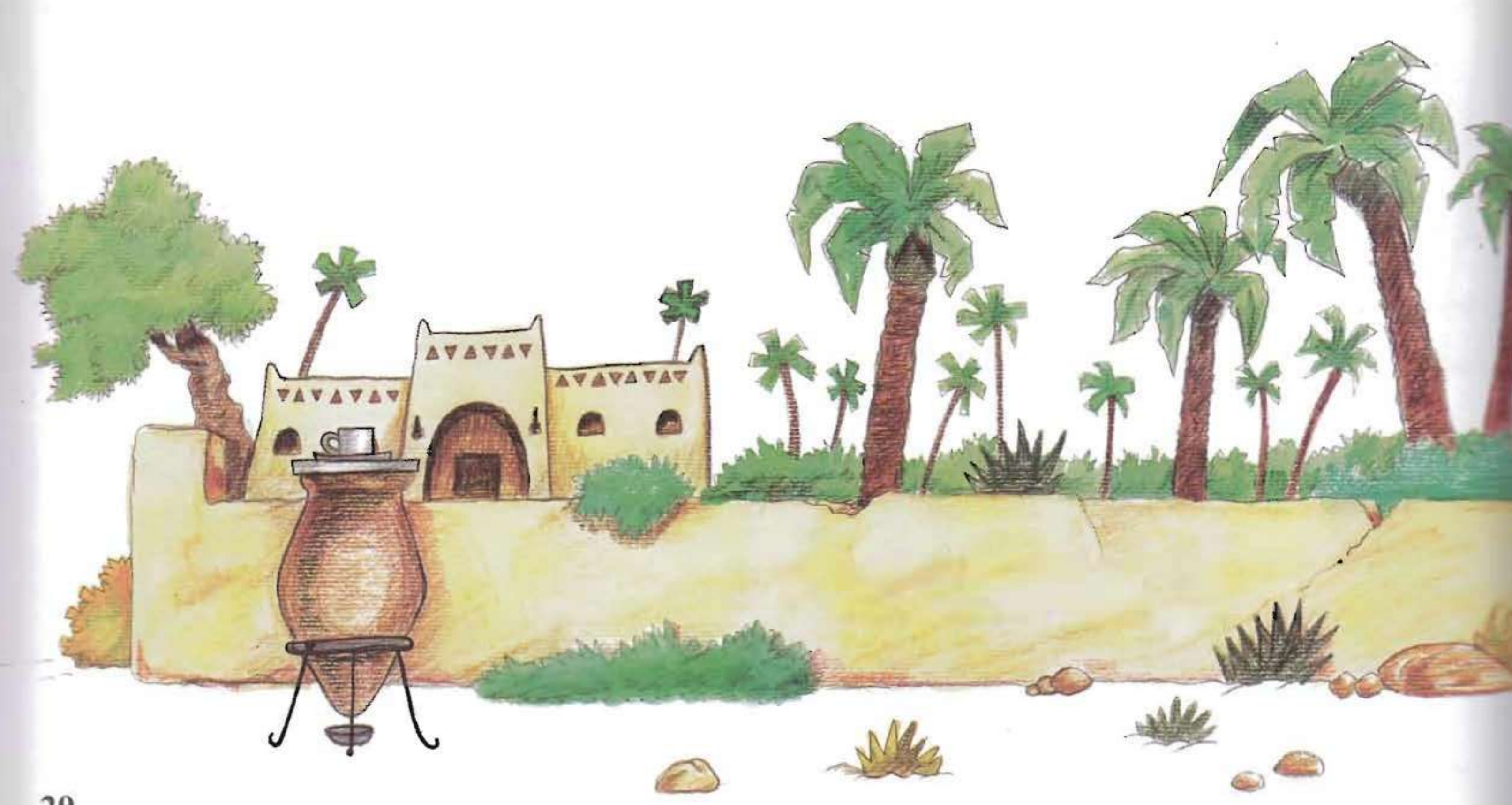
***



وصلتِ القافِلَةُ إلى واحةِ الريانِ بعدَ أُسبوعٍ، ونزلَ أفرادُها، ومنهم عوض وفيصل وفِراس، في نُزُلِ المسافرينَ. وفي الحالِ تفرَّقُوا في القريةِ يسألونَ أهلَها عن ناعسة. فلم يجدُوا لها أثرًا أو يسمعُوا عنْها خبرًا.

في مساءِ اليومِ التالي، خرجَ الرِّفاقُ الثلاثَةُ نحو حِطِّيَّةِ نخيلٍ خارجَ سورِ القريةِ (الحطيةُ: حقلٌ أو بُستانٌ مُحاطٌ بسورٍ قصيرٍ من طوبِ اللَّبنِ) ، فدعاهُم أصحابُها ليشرَبوا معهم شايًا ويأكلوا تمرًا.. وجلسُوا يتسامرونَ.

بعد قليلٍ، وفي هدوءِ الليلِ.. سمِعَ الثلاثَةُ صوتَ غِناءٍ ساحرًا يأتي من وراءِ الحِطِّياتِ، فتلفتُوا متعجبينَ..



فقـالَ لهـم أحـدُ الرجـالِ: «إنَّه صوتُ غِنـاءِ ضَيْفَةٍ في دارِ الشـيخِ عبد السـلامِ، تُقيـمُ عندَهم منذُ أُسبوعَيْنِ.. نسمعُ غِناءَها كلَّ ليلةٍ في مثلِ هذا الوقتِ».

فقالَ فَيْصَلُ: «هذا الصوتُ يُشْبِهُ صوتَ ناعسة».

فردَّ فِراس: «وهذه الأُغْنِيَةُ تُشْبِهُ أغانيها». فهبَّ عوضٌ قائلًا: «هيَّا نَسيرُ نحوَ الصَّوْتِ».

سارَ الثلاثَةُ حتَّى عَبَروا الحِطِّيَّات، ووصلوا إلى سورِ دارٍ يجلسُ في فِنائِها بعضُ النسوةِ والأطفالِ.

دقَّ فِراس البابَ وقالَ: «ياأهلَ الدَّارِ، نحن أغرابٌ، جِئنا نسألُ عن أُخْتِنا.. ناعسة».

قامتْ إحدَى النسـاءِ من المجلسِ وأسـرعتْ وفتحتِ البابَ وهي تقولُ: «إنه صوتُ أخي.. أخي فراس».

الْتَقَى الإخوةُ الثلاثةُ، وفَرِحَ الأَخَوان بنجاةِ أختِهم، وحمدُوا اللهَ على سلامَتِها، ودعاهُم صاحبُ الدارِ إلى مَضْيَفَتِهِ ورحبَ بهم..





حكتْ ناعسة لأخوَيْها ما لاقتْهُ من العصابَةِ، وكيفَ هربَت منهم.. ثُمَّ عنْ مغامَرَتِها على البرِّ حتَّى وجدَتها القافلةُ التي حملَتْها إلى واحةِ الرَّيانِ.. ورَوَى لها أخوَاها كيف نَجَوْا من السفينةِ الغارقَةِ بفضلِ خطةِ عوض.. وحكَى لهم صاحبُ الدارِ كيف عَثرَتِ القافلةُ على ناعسة في الصَّحراءِ، وكيفَ جاءتْ معهم إلى واحةِ الريانِ، وأقامتْ في بيتِهِ مع زوجتِهِ وبناتِهِ.

ظلَّ عوض وفيصل وفراس وناعسة مقيمينَ في واحةِ الريانِ حتى تَجَهَّزَتِ القافلةُ التي قَدِمَت معها ناعسة في طريقِها إلى الشرقِ، فعادُوا معَها إلى ميناءِ الدويرةِ ومنْها إلى أبو هيف البلدِ.. في طريقِها إلى الشرقِ.

فرحَ عمُّ إدريس بعودةِ أولادهِ سالمين واجتماعِ شملِهِ معهم، واختارَت ناعسة أن تَتَزَوَّجَ من عوض.. وعاشَ الجميعُ في تَباتٍ ونباتٍ.. وأنجبُوا صِبيانًا وبناتٍ.





نَاعِسة

تعيش ناعسة مع أبيها وأخويها قرب الفنار على أطراف قرية أبو هيف البلد، اشتهرت بين الناس بمهارَتِها في العناية بالمرضى وخبرتها في العلاجات المُستَخلَصَة من النباتات. وكانت لها ضفيرة وحيدةٌ طويلةٌ جدًا، وصوتٌ جميلٌ ساحرٌ يُعجَبُ به كل من يسمعها تتغنَّى به أثناء عملها، أو في طريقها إلى القرية، أو حين تجلِسُ على درجات الفنار تَخيطُ ثوبًا أو تُطرِّزُ مفرشًا.

ولكن كان على ناعسة أن تقرر... ما هو أهم شيء في الحياة بالنسبة لها: المال والثروة، أم القوة والشجاعة .. أم العلم والعمل .. تُرى ماذا اختارت؟

الناشر





